الحقنا

(مِنْ وحْي تظاهرة ١٩ تموز)

«يا حضرة النائب، هذا لا يجوز»!

* *

ما أصعَب أن تخترق هذه الدورّيات والدّبابات؛ وما أصعب أن تنظر في وجوه هؤلاء العسكر المدجَّجين – حتى الأسنان – بالسلاح والعتاد والقهر والفقر وحقد السلطة!

* *

«يا حضرة النائب، هذا حرام!»

* *

قضيتُ الليل كلّه، متوفِّزاً بانتظار الصُّبح. إذن، ستنطلق التظاهرة، وسيكون على رأسها العمّال، وسأكون هناك. سأكذبُ على زوجتي، وسأخدعُ أهلي. سأكونُ هناك عند الساعة العاشرة... بل قبل هذه الساعة. ولن تعادل سعادةً سعادتي التي سأشعر بها صباحَ الغد. لقد طال الانتظار، وسنقول كلمتنا هذه المرة: في الشارع، وملء حناجرنا!

* *

كان يضرب بقبضتيه اليافعتيْن على سيّارة «الراينج روفر» التي تقلّ النائب: «يا حضرة النائب، هذا لا يجوز! قلتم لنا أن نتوجّه بالتظاهرة إلى القصر الحكومي، لا إلى مقرّ الاتحاد العمّالي العام».

–غوغائي !

– أنا غوغائي؟ الآن عرفناك يا حضرة...، يا مُعارض!

وانهالتْ أعقاب البنادق!

* *

– ستشارك في التظاهرة، أعرف ذلك. لكن هل أنت مقتنع بمن سيكون على رأسها؟

– ليس تماماً.

– ومع ذلك، ستذهب؟

– .....

– على كل حال لن تكون الرجلَ الذي عرفتُه وأحببتُهُ، إن لم تفعل!

– لا تقلقي. عند أوّل إشارة خطر، سأهرب.

– سأفكّر بك، وسأفتّش عنك على شاشة التلفزيون.

* *

«أجلْ لم ينكصْ عن مظاهرةٍ مِن المظاهرات التي دعتْ إليها اللجنة، ولكنّه كان يفقد جنانَه عند ظهور اللوريات المحملة بالجنود، وخاصةً عند انطلاق الرصاص وتساقط الضحايا (...) كانت أعمالُ البطولة تتراءى لعيْنيه رائعةً باهرةً تخطف الأبصار؛ وطالما أنْصتَ إلى نداء باطني يهيب به إلى الإقدام والتأسي بالأبطال، ولكنْ كانتْ تخذله أعصابُه في اللحظة الحاسمة؛ فما إن تنحسر موجةُ المعركة حتى يجد نفسه في المؤخِّرة، إنْ لم يكن مختبئاً أو هارباً، ثم يعود إلى التصميم على مضاعفة البذل والكفاح والتماسك بضمير معذّب وقلب حائر ورغبةٍ في الكمال لا تُحَدّ، متعزّياً أحياناً بقوله: ما أنا إلا محارب أعزل، ولئنْ فاتني الرائع مِن أعمال البطولة، فحسبي أنني لم أتردّدْ مرة واحدةً عن الإلقاء بنفسي في أتون المعركة». (نجيب محفوظ، **بين القصرين**، طبعة دار القلم، بيروت، ص ٤٧٤).

* *

الشوارع مقطوعة. هل نحنُ في التشيلي التي صوّرتْها ايزابيل اليندي في **بيت الأرواح**؟ وماذا ستفعل هذه الدّبابات الكثيفة؟ لعلّها ستمنع المندسّين، حفاظاً على الاستقرار والسلامة العامة وإنجازات «الطائف»!.

* *

«قبضنا على عدة مندسّين»، قال وزير الداخلية، «وهم فلسطينيون من جماعة عرفات». المحرِّضون على التظاهرة فلسطينيون وشيوعيون، يا صاحبي. هل تريدون عودة رموز الحرب، سأل رئيس الوزراء الصحفيين؟

لا نريد الحرب، ولا نريد رموز هذه الحرب. ولهذا، سننزل إلى الشارع، ونهتف ضد الحكومة التي تلف أمراء الحرب وتحميهم!

* *

– احملوه إلى سيّارة الجيب!

– خذونا كلنا، ما عمل شيئاً، حرام عليكم!

صرخت الفتاةُ وهي تتشبَّثُ بالفتى. الصفعات والضربات وأعقابُ البنادق تنهالُ أكثر قسوةً على رأسه. قبعته السوداء تسقط:

– أنا ما قلت شيئاً. كل ما قلته له: «يا حضرة النائب، هذا لا يجوز»!

* *

«هم مين، ونحن مين؟

هم الأمراء والسلاطين!

ونحن الحرب: حَطبها ونارها

ونحن الجيش اللي يدمّرها!

هم مين ونحن مين؟

نحن قرنفل على ياسمين!

هم الڤيلا والعربيّة

والنساوين المتنقّبة!»

من قبره طلع الشيخ إمام، يحثّ التظاهرة ويؤمّ المتظاهرين!

* *

«أقبل على السرادق الضخم، وألقى نظرةً شاملة على الجموع الحاشدة، مسروراً بكثرتها الهائلة. وتطلّع ملياً إلى المنصّة التي سيعلو عندها عمّا قليل صوتُ الشعب، ثم اتّخذ مجلسه. إنّ وجودَه في مثل هذا الجمع الحاشد يُطلق مِن أعماق ذاته الغارقة في الوحدة شخصاً جديداً ينتفض حياةً وحماساً. هنا ينحبس العقلُ في قمقم إلى حين، وتنطلق قوى النفس المكبوتة طامحةً إلى حياةٍ مفعمةٍ بالعواطف والأحاسيس دافعةً إلى الكفاح والأمل، وعند ذاك تتجدّد حياته وتنبعث غرائزُه وتتبدّد وحشتُه ويتّصل ما بينه وبين الناس، فيُشارك في حياتهم ويعتنق آمالهم وآلامهم. إنّه بطبعه لا يطيق أن يتخذ مِن هذه الحياة حياةً ثابتةً له، ولكنْ لا بد منها بين حين وآخر حتى لا ينقطع ما بينه وبين الحياة اليومية، حياة الناس».. (نجيب محفوظ، **السكّرية**، طبعة دار القلم، ص ٣٨).

* *

صرخت امرأةٌ كهلة في وجوههم:

– روحوا حاربوا إسرائيل. حرام عليكم أن تضربوا أولادكم!

وتعالت هتافات:

«يا جندي، أبوك معنا

ضبّ سلاحك، والحقنا!».

* *

سألتُ صاحبَ الدكّان:

– ستنزل إلى المظاهرة غداً؟

– دخيل عرضك يا خيّي. بكرا بيضربوكم، واللي ضَرَب ضَرَب، واللي هرب هرب!

في الصبّاح، قبّلْتُ زوجتي وطفلتي، وقفزتُ السلّم أربعاً أربعاً.

سماح ادريس